

الخبيث

- ... كان " الحكيم " يخرج العظم من ظهرها مفتتا.
- أرهفت سمعي لجدي وهي تهمس لجارتها أم محمود التي استقرت:
- أي مرض هذا الذي أصاب الست زكية؟
- المرض الخبيث ، ربنا يكفينا الشر.
- اللهم آمين .
- كانتا جالستين في شمس الضحى ، فوق سطح بيت جدي ، وقد أحكما تغطية سيقانهما هرباً من برودة "أمشير" ([1])، انشغلت جدي بتفكير "بامية" مجففة منذ الصيف الماضي، وقد شبكت ثمراتها بخيط، وكانت معلقة في ركن بالمطبخ. يحيرني مشهد العظام المفتتة، يلح السؤال في أعماقي، أهمهم، ثم أستجمع شجاعتي وأسألها:
- لماذا سموه الخبيث يا خالتي؟
- لن تتضايق جدي من إلحاحي، وستجيب عما يدهشني، تطلعت إلى عيني، وتكفلت أم محمود بالرد:
- .. من غضب الله يا بني .
- لو عصيت الله يصيبني الخبيث؟
- احتضنتني الجدة بخوف قائلة:
- سلمك الله يا حبيبي
- أعود لتساؤلي ، والعظام المفتتة تتخايل أما عيني كالطحين:
- وماذا حدث للست زكية؟ كيف استقام ظهرها؟
- ترد جدي : خرج السر الإلهي بعد أيام

كان دائم المرور على خالي وقت المغربية، "ممدوح" ذو الجسد المشابه لجسد أحمد رمزي، يأتي ويرفع صوته ذا النبرة الرفيعة منادياً على خالي، ولأنني كنت ألعب في الدهليز الخارجي لبيت جدي، أسرع بتحريك باب البيت الخشبي الكبير الذي يدور حول محور خشبي، وأسمع اهتزاز المطرقة الحديدية المدلاة، ثقيلة هي عندما حملني أخي الأكبر وحاولت استخدام مقبضها. خرجت مجيباً:

- أهلاً يا أستاذ ممدوح، خالي موجود

- نادِ عليه

أدخل، وأجد خالي قد انتهى من ارتداء ملابسه: قميص لبني اللون وبنطال أزرق وراح يلمع شعره بزيت أخضر اللون، أقول له:

- الأستاذ ممدوح ..

يقاطعني، وهو يلبس حذاءه:

- سمعته، وسأخرج له حالا

تذكرت: اليوم الجمعة، موعد خروجهما، نظرت لملابسي؛ ألبس فانلة برتقالية على شورت أسود، سأتشبث بهما، سيذهبان للسينما، ويتعشيان. تعلقت بيد خالي، رفض "ستنام منا"، صرخت وضربت الأرض بقدمي، ارتفع صوت جدتي وجدي "خذه معك، هذا عيّل".

تعلقت بيد "ممدوح"، وأنا أسير معهما في شارع البحر، منشغلاً بأكل "كوز ذرة مشوي"، وهما غارقان في حديث باسم تصلني منه كلمات متناثرة. دقائق وكنت غارقاً في ظلام السينما، ظللت واقفا فلم يدفعني لي تذكرة لصغري، أتأمل الشاشة فضية اللون، وأشاهد الفيلم الأجنبي: معارك بالأيدي، طلقات الرصاص متتابعة، أجساد تتطاير، تمتلئ الشاشة بطائرة هليكوبتر.

شعرت به يحملني في العود، "ممدوح" كان حائياً، ويرفض أن يوقظني خالي فقد اقترب البيت.

* * *

هزيلا كان، حينما مرّ على خالي، وآثر أن يجلسا في غرفة الجلوس ذات الكنبات الأربع. ضعيف صوته، شاحب الوجه، تعروقت يداه، وقميصه فضفاض على صدره.

- ماذا حدث للأستاذ ممدوح؟

- مريض، ربنا يشفيه

أجابني خالي بهمسة حزينة، بعدما أوصل الأستاذ ممدوح إلى باب البيت. حاولت أن أستفسر أكثر؛ منعنتني جدتي التي سألتها فأجابها:

- المسكين يتحرك رغم المرض، مشتاق للشوارع، قبل أن يسافر

- يسافر أين؟

- إلى القصر العيني

* * *

غاب خالي أسبوعين، كان مرافقاً لممدوح في القاهرة، فهو وحيد على إخوته البنات، وحين عاد خالي، كانت ملامحه ضائعة وسط شعر لحيته الذي نما دون تهذيب. لم أستطع التقاط إلا جمل مبعثرة، لم أجد فيها "عملية جراحية"، وإنما "دواء كيماوي"... وأنهم أعادوه إلى البلد.

* * *

ذهبت مع جدتي إلى بيته، لم يظهر من جسده إلا وجه بارز العظم، ورأس متساقط الشعر، تراكت عليه أغطية عدة؛ ألحفة وبطاطين وملاءات. وقفت مرتكناً، وجلست جدتي وهي تتمتم بالشفاء، وترتشف كوب الشاي الذي أعدته أخت ممدوح، أتطلع إلى نافذة الغرفة؛ لا تنفذ أشعة الشمس إلى أعماق البيت، ربما لأن بيتهم في آخر حارة مسدودة، وحوله بيوت عالية البناء. الصمت جاثم في العيون، وأم ممدوح ملاصقة لابنها على فراشه، تتمتم بما تحفظه من آيات القرآن، وهي تتحسس الرأس الأقرع

استندت جدتي على كتفي في عودتنا، كانت ملاءتها السوداء تغطي كتفيّ، شعرت بوهنها، سألتها:

- ما مرضه؟

شعرت بحيرتها، ألححت بتكرار السؤال، همست:

- الخبيث .. ، ربنا يعافينا منه يا بني.

شهقت، لم أر عظاما مفتتة، والجسد سليم، فقط الجلد كاسٍ العظم.

* * *

كان مشهده عزيزا على سكان الحي، أمه في صدر الحارة تخربش طوب حائط بيتها، علّها تدلف وتلمس الجسد العظمي الذي يُغسل في الغرفة "الجوانية" فيما تراصت كراسٍ تملأ فناء الحارة.

تعلمت الأم بالنعش، تشبّثت بها ابنتاها، تقدم النعش حاوياً العظام الجلدية، كان خفيفاً، تتناقله الأكتاف بيسر.

أيام وعادت جدتي تقول: دفنت أمه " هدماته " على السطح، ورفضت رميها.

كانت ممددة على السرير النحاسي ذي القوائم الحديدية، جدتي، أتأمل جسدها النحيل القصير، وقد اكتسى بصفرة داكنة، وغامت عيناها. شعرها الأبيض متناثر على مخدة بهت لونها.

- ماذا بك يا جدتي ؟

ظلت عيناها في اللاشيء، قبضت على كفها، الأصابع المعروقة تذوب في كفي الصغير. أنظر لأمي التي أخفت وجهها باكياً، السؤال في فراغ الغرفة بسقفها الخشبي العالي الذي يبث رطوبة تكتم الألسنة.

* * *

هذه المرة الأولى التي أرى فيها المستشفى العام (الأميري)، بناء أبيض كبير أتيه في معالمة. أبقوني في الحديقة، انطلقت على النجيل، مساحات خضراء تتوسطها أحواض زهور جافة، غرقت في الحشائش الطويلة، أتقلب على الأرض، انتبهت إلى همس أمي أن أبقى هنا؛ التساؤل في أعماقي. أظل وحيدا، أتقلب على العشب، نباتات بلا زهورات، وأخرى شوكية الملمس أدمت أناملتي. أسترجع همسات أمي وخالتي:

- .. العملية نجحت، والطبيب أخرج الورم من بطنها.

سأصعد لجدتي، سمعت أمي تهمس لخالتي أنها بالدور الثالث، أرتقي السلالم، تملأ أنفي رائحة الأدوية والكحول، يتداخل لون الجدران مع بياض الأسرة وملابس الممرضات. أصل للدور الثالث، أغرق وسط ردهاته، أنتقل بين العنابر الكبيرة، تجوس عيني الأسرة، تتشابه الوجوه، تتداخل، تصبح مزيجًا من البياض والاصفرار مشبعًا برائحة الدواء.

في عنبر أوسط، رأيتها، في السرير الأول، حولها أمي وخالتي وخالتي، وجهها شديد الاصفرار، غابت شفتاها فاستحال فمها خطأ باهتًا، شال أسود يلف صدرها، طالعنتني بعينين ذات حدقتين باهتتي السواد. ارتكنت بجوارها، وكلمات أمي المعنفة تلاحقني، تحسستني بيدها، عروق ذراعها على خدي، ألتصق فيها، وأتحسس جسدها .. ثمة ضمادات عند بطنها، شعرت ببرودة في أعماقي.

* * *

في الدهليز الداخلي لبيت جدي، الكفوف تحمل جسدها ملفوفا بقماش؛ لم أميز لونه وأنا غارق وسط الأرجل، فيما لهجت الحلوق بالأدعية، والنعش ذي البروز الرأسي في مقدمته يتحرك خارج البيت.

* * *

أبكي مستحضراً جسدها بضماداته: جدتي كانت طيبة؟!!

رد جدي في جلسته جانب الشباك ذي الضلقات الطويلة:

- .. المرض يا بني بلاء أو ابتلاء.

* * *

وحيدًا كنت على سطح البيت، الشمس متسلطة على رأسي، قلبي منقبض، أسرع بالنزول عبر السلم الخشبي، أتوقف عند الغرفة السفلية "الخزانة"، صناديق مبعثرة، وأخشاب وحدايد .. ، في ركن الغرفة، كومة من طين رطب؛ آثار أصابع عليه، عبثت به، تبدو ملابس مطمورة، أزيح الطين، إنها ملابس جدتي، أقلبها، مصطبغة بدماء جافة. رائحة جدتي تشعل أعماقي نارا.

[1] (اسم لأحد الشهور حسب تقويم السنة القبطية المصرية القديمة.